تعسر عبد الشهوات

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :



دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعـالى أكـرم عبـاده بالإيمـان، وضــاعف لهم ســوابغ الإحســان، والصــلاة والســـلام على رســـول الهُـــدى، وعلى آله وأصحابه أعلام التقى.

وبعد:

النفس! ما أشد غوائلهـــــا! وما أفـــــدح مطالبها!

يسُرُّها الهيِّن القـريب... ويسـوؤها طلب البعيد وإن كان أرفع حبيب!

صاحبها في عناء مرير.. وبلاء مستطير!

مطالبها في ازديـاد... ورغائبها لا تعــرف الرقاد!

إذا اشـتهت نـزعت ثيـاب الصـبر... وإذا طلبت مرغوبًا فكأنما على الجمر!

جهادها شديد... وخلافها بعيد!

من أطاعها ولجت به المهالـــك.. وأردته فإذا هو هالك!

أســـير من أطاعهـــا.. وأمـــير من بعصا الصبر ساقها!

أهل الـــــذنوب لها عبيـــــد... وهم في سلطانها في أسر وحديد!

*** فيا صــاحب الــذنب هلا صــبرت على شهواتها؟!**

قال حذيفة بن قتادة: «قيل لرجـل: كيف تصنع بنفسك في شـهواتها؟ فقـال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلي منهـــا، فكيف أعطيها شهواتها»؟!

أيها المـــذنب! أما طـــالبت النفس يومًا بالصبر عن شهواتها؟!

أيها المســكين! إنها النفس.. لا تحســبنَّ أنها ستنقاد إليك طائعة!

قــال ابن أبي الــدنيا: «وجـدت في بعض الحكمة: الصبر على عشـرة وجـوه: الصـبر عن المعاصـــي، والصـــبر على الفـــرائض، والصبر على الشبهات، والصبر على الفقـر، والصـــبر على الأوجـــاع، والصـــبر على المصائب، والصبر على أذى الناس، والصبر عن الشـهوات، والصـبر عن فضـول الكلام، والصبر على النوافل».

* أيها المذنب! نفسك عدوك!

لا يزال أهل الهوى والشـهوات في نصب وعنـــاء، وهم يلبـــون حاجـــات النفس.. ويتسارعون إلى قضاء شهواتها! وما علمــوا أن النفس عدو قريب.. ومـتربص سـهمه لا يخيب!

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّـــوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53].

والنفس الأمارة: هي التي تـأمر باللـذات والشـهوات، وهي الـتي تحض على الأخلاق الذميمة.

قـال يحـيى بن معـاذ: «أعـداء الإنسـان ثلاثـة: دنيـاه، وشـيطانه، ونفسـه، فـاحترس من الـــدنيا بالزهد فيهـــا، ومن الشـــيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات».

فاحـذر – أيها المـذنب – سـهام النفس.. فـــإن ســـهامها قاتلة المنافـــذ! وما أكـــثر الغافلين عن هذا العـدو القـريب.. ثقة منهم بودِّه وصداقته!

*** أيها المـــــــــــذنب! تعس عبد الشهوات!**

أقبح بـــالحر أن يكـــون عبـــدًا لهـــواه وشــهواته.. فهو مأســور تحت ســلطانها.. ومقهور في حبها!

قال بعض الحكمـاء: «من اسـتولت عليه النفس صـــار أســـيرًا في حب شـــهواتها، محصورًا في سجن هواهـا، مقهـورًا مغلـولاً زمامه في يدها، تجـره حيث شـاءت، فتمنع قلبه من الفوائد»!

وقـــال مالك بن دينـــار: «بئس العبد عبد همه هواه وبطنه»!

فيا من استبدلت عبودية الخــالق بعبودية الشـــــهوات.. أما خطر ببالك أي عـــــوض استبدلت؟!

قال الفضيل بن عياض: «من اسـتحوذت عليه الشـــــهوات؛ انقطعت عنه مــــــواد التوفيق»!

فيا مأسـورًا لشـهوته! لن تحصد منها في دنيــاك ســوى البــؤس والشــقاء.. وأما في الآخرة؛ فإنها ستقودك إلى النار!

قال الحسن بن محمد الجريري: «أسـرع المطايا إلى الجنة؛ الزهد في الدنيا، وأسرع

المطايا إلى النـــار؛ حب الشـــهوات، فمن اســتوى على متن شــهوة من الشــهوات؛ أسرع به القود إلى ما يكره».

*** أيها المـذنب! طـالب الشـهوات متخلق بأخلاق البهائم!**

يكفي في التفسير عن طريق الشهوات؛ أن صــاحبها متخلق بــأخلاق البهــائم! ويزيد ذلك قبحًا أن الله تعــالى وصف الكـــافرين بذلك!

قـــال الله تعـــالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَــرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَـأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُـلُ الْأَنْعَـامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ [محمد: 12].

قـــال قتـــادة رحمه اللـــه: «خلق الله سبحانه الملائكة عقـولاً بلا شـهوات، وخلق البهائم شـهوات بلا عقـول، وخلق الإنسـان، وجعل له عقلاً وشـــــهوة، فمن غلب عقله شـــــهوته؛ فهو مع الملائكـــــة، ومن غلبت شهوته عقله؛ فهو كالبهائم»!.

أيها المـــــذنب! إن طلب الشـــــهوات، واللهث خلفهـــا؛ عنـــوان لعمى القلـــوب.. ودليل على الحرمان!

فلا تحجبك لــذة الشــهوات العاجلة عن معايبها.. فإن من كرمه الله تعـالى بالعقـل؛ قادر على التمييز بين ما ينفعه وما يضره..

*** المجاهد حقًا!!**

أيها المــذنب! أتــدري من هو المجاهد حقًـا؟! إنه من جاهد نفسه على شـهواتها.. وقادها إلى ما تكره..

قـــال رســـول الله ﷺ: «**ألا أخـــبركم بـــالمؤمن؟! من أمنه النـــاس على أمــوالهم وأنفســهم، والمســلم من ســلم النـــاس من لســانه ويـــده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة اللـــه، والمهـــاجر من هجر الخطايا والـذنوب**» [رواه أحمد وغـيره/ السلسـلة الصحيحة: 549].

وقيل ليحـيى بن معـاذ: من أصح النـاس عزمًا؟ قال: «الغالب لهواه».

وقال مالك بن دينار: «من غلب شـهوات الـدنيا؛ فـذلك الـذي يفـرق الشـيطان من ظله»!

بل إن الزاهد الحقيقي هو الـــــذي هجر

الشهوات.. وأعرض عن مطالب النفس..

قـال ابن شـهاب الزهـري: «ليس الزهد بتقشف الشــعر، وتفل الــريح، وخشـــونة الملبس والمطعم، ولكن الزهـــــد: ظلف النفس عن محبوب الشهوات».

*** أيها المــذنب! ثمــار الشــهوات مرارات وآلام!**

ذلــك هــو حصــاد أهــل الهــوى من شـهوات النفس ولـذاذاتها.. وهي ثمـار يجنيهـا المـذنبون نقيض قصـدهم.. فهم يطلبون من الشهوات المتعـة واللـذة.. وقـــد يجـــدون ذلـــك.. ولكن مـــرارة الشهوات ستغلب اللذة العاجلة!

وتجنب الشهوات أن تكون لها قتيلا

فلربَّ شهوة قد أورثت حزنًا

قـــال أبو يحـــيى الـــوراق: «من أرضى الجــوارح بالشــهوات؛ فقد غــرس في قلبه شجر الندامات»!

وقال مالك بن دينار: «دخلت مكـة، فـإذا أنا بجويرية متعبدة الليل أجمع، حول البيت، وكلما طـافت سـبعة أشـواط؛ وقفت حـذاء

الملتزم، ثم تقول بصوت حزين: يا رب! كم من شهوة قد ذهبت لذتها، وبقيت تبعتها، ما كان لك عقوبة إلا النار؟!».

وقـــال الحسن البصـــري: «ســـتعلم يا مســكين! تنفق دينك في شــهوتك ســرفًا، وتمنع في حق الله درهمًا! ستعلم يا لُكَع!».

*** أيها المـــــــذنب! لا تفسد قلبك بالشهوات!**

كم في ركــوب الشــهوات من فســاد قلوب.. وسموم للنفوس!

فــإن القلب كالوعــاء؛ يصــلحه ما تجعله فيــه.. فــإن وضـعت فيه طيِّبًـا؛ طـاب ريحًا ومنظرًا.. وإن وضعت فيه خبيثًـا؛ خبث ريحًا ومنظرًا..

قــــال رســـــول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضــغةً، إذا صــلحت صـــلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلــه، ألا وهي القلب**» [رواه البخــاري ومسلم].

قال يوسف بن أسباط: «عجبًا كيف تنـام عين مع المخافــة، أو يغفل قلب بعد اليقين بالمحاســبة، ومن عــرف وجــوب حق الله على خلقــه؛ لم تســتحل عينــاه أحــدًا إلا بإعطاء المجهود من نفسه، خلق الله تبارك وتعــالى القلــوب؛ فجعلها مســاكن للــذكر، فصارت مساكن للشهوات!

إن الشــهوات مفســدة للقلــوب، وتلف

للأموال، وإذلاق للوجوه، ولا يمحو الشهوات من القلـــوب إلا خـــوف مـــزعج، أو شـــوق مقلق».

*** أيها المذنب! أتدري ما هي اللذة الحقيقية؟!**

محرومون أولئك الذين يظنـون أن اللـذة في شـهوة عاجلـة.. أو لـذة منقطعـة! لقد غـاب عن هـؤلاء اللـذة الحقيقيـة.. والـتي يجدها أهل الطاعات..

قال أبو سليمان الداراني: «تـرك شـهوة من الشـهوات أنفع للقلب من صـيام سـنة وقيامها»!

وقال عبد الله الـداراني لمالك بن دينـار: «يا مالك إن سرك أن تذوق حلاوة العبـادة، وتبلغ ذروة ســـــــنامها؛ فاجعل بينك وبين شهوات الدنيا حائطًا من حديد»!

وقـــال ابن الجـــوزي: «لقد غفل طلاب الـــدنيا عن اللذة فيهـــا، وما اللـــذة فيها إلا شرف العلم، وزهـرة العفـة، وأنفة الحميـة، وعز القناعة، وحلاوة الإفضال على الخلـــق، فأما الالتـــذاذ بـــالمطعم والمنكح؛ فشـــغل

جاهل باللــذة، لأن ذاك لا يــراد لنفســه، بل لإقامة العوض في البدن والولد.. فمن مـال إلى النســاء؛ لم يصف له عيش، ومن أحب الشراب؛ لم يمتع بعقلـه، ومن أحب الـدينار والدرهم؛ كان عبدًا لهما ما عاش»!.

*** أيها المـذنب! شــهوات النفس بالترك..**

إن من طاوع النفس في رغباتهـا؛ طالبته بالزيادة.. فـإذا طاوعهـا؛ طالبته أيضًـا.. فما تــزال بــه؛ حــتى توقعه في الحــرام! فــإن النفس لجوج.. فإنك إن عودتها: لا.. سَلَت.. وانقادت..

قــال بعض الحكمــاء: «إني لأقضي عامة حوائجي بالترك، فيكون ذلك أروح لقلبي»!

وقــال بعضــهم: «إذا أردت أن أســتقرض من غيري لشهوة أو زيــادة؛ استقرضت من نفسي فــتركت الشــهوة، فهي خــير غــريم لي»!

وكان إبراهيم بن أدهم يسأل أصحابه عن سعر المأكولات، فيقول: إنها غالية. فيقــول «أرخصوها بالترك»!

أيها المذنب! ادفع الشهوة بـالترك.. وكن مع نفسك؛ لجوجًا.. عنيـدًا.. يصـلح حالك إن شاء الله تعالى..

*** أيها المـذنب! أما سـمعت بخـبر من جاهد نفسه في المباح؟!**

يا من ركبت مطية الشـــهوة الحـــرام.. إليك طرفًا من خـبر رجـال جاهـدوا الأنفس في المبـــــاح.. فلم يمكنوها من لـــــذاتها الحلال.. بل دفعوها بسوط العزم والصـبر.. حتى انقادت كأطوع ذلول!

وهـؤلاء إنما تركـوا المبـاح؛ خوفًا من أن يجـرهم إلى الازديـاد منـه.. ثم الوقـوع فيما فيه بأس..

* مر أبو حـازم يومًا في السـوق، فـرأى الفاكهة، فاشتهاها، فقال لابنه: اشتر لنا من هـــذه الفاكهة المقطوعة الممنوعـــة، لعلنا نـــذهب إلى الفاكهة الـــتي لا مقطوعة ولا ممنوعة! فلما اشتراها، وأتي بها إليه، قـال: لنفسه: قد خدعتني حتى نظرت واشـتهيت، وغلبتني حتى اشتريت، والله لا ذقته! فبعث بها إلى يتامى من الفقراء!

* وقـــال لمالك بن دينـــار جـــار له في مرضـــه: ما تشـــتهي؟ قـــال: إن نفسي لتنازعني إلى شيء منذ أربعين سنة؛ رغيف أبيض ولبن في زجاج!

فأتـــاه بـــه، فجعل ينظر إليـــه، ثم قـــال: دافعت شهوتي عمري كله، حتى إذا لم يبق من عمـــري إلا مثل ظمئ الحمـــار أجـــدها، انظروا يتيم آل فلان فـادفعوه إليـه. ومـات بشهوته!!

* وقيل لبعضـــهم: ما بالك مع كـــبرك لا تتعهد بـدنك، وقد انهـد؟! فقـال: لأنه سـريع المرح، فاحش الأشر، فأخـاف أن يجمح بي فيورطني، فلأن أحمله على الشـدائد؛ أحب إلي من أن يحملني على الفواحش!

فيا من آثرت الشـهوات على الطاعـات! تأمل في حـــال هـــؤلاء القـــوم.. وفي علو همتهم.. وحاسب نفسك.. لتعلم ما أنت فيه من الغبن والخسران! والله هو الهـادي إلى سواء السبيل.

*** أيها المـذنب! هجـران الشـهوات ربحه أعظم سلعة (الجنة)!**

الجنــة! حقًّــا! إنها ســلعة الله الغاليــة.. ونعيمه الباقي! لا أسـعد ممن فـاز بـالحلول في نعيمها.. ولا أشقى ممن باعـده الله عن حبورها!

مهرها غال.. وثمنها عال!

والكــلُّ يســره دخولهــا.. ولكن قليل من عمل لنزولها!

وهجر الشـهوات مهر صـدقٍ للفـوز بهـا.. وجواز بعيد عن التعويق!

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآَثَـــرَ الْحَيَـــاةَ الــدُّنْيَا * فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَـأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَـــافَ مَقَـــامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى * فَـإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 37-41].

قـال علي بن أبي طـالب ﷺ: «من اشتاق إلى الجنة؛ سلا عن الشهوات في الدنيا».

أيها المـــــــذنب! تأمل في عظم الثواب.. إنها (الجنة)!

أفترضى أن تعتاض بها شهوة عاجلــة.. لا تدوم لذتها إلا لحظات؟! أي غبن أعظم من هذا؟!!

وأي خـير يجنيه صـاحب الشـهوة منهـا؛ حـتى يحـرص عليهـا؟! فكن – أيها العاقل – حربًا على نفسـك.. عـدوًا لشـهواتها.. فـإن أبيت فوطِّن نفسك للذل!

قال وهيب بن الورد: «من أحب شهوات الدنيا؛ فليتهيأ للذل»!

أيها المـذنب! وتـذكر أن لـذة قهر الشهوات، أعظم من لذة الشهوات!

قال ابن الجوزي: «وفي قوة قهر الهـوى لــذة تزيد على كل لــذة، ألا تــرى إلى كل مغلوب بـالهوى كيف يكـون ذليلاً، لأنه قهـر، بخلاف غــالب الهــوى، فإنه يكــون قــوي القلب، عزيزًا؛ لأنه قهر؟!

فالحـذر الحـذر من رؤية المشـتهى بعين الحسن، كما يرى اللص لذة أخذ المـال من الحرز، ولا يـرى بعين فكـره القطـع، وليفتح الإنسـان عين البصـيرة لتأمل العــواقب، واسـتحالة اللـذة نغصـة، وانقلابها عن كونها لــذة، إما لملــل، أو لغـيره من الآفـات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب؛ فتكون المعصـية الأولى كلقمة تناولها جــــائع فما ردت كلب

الجوع، بل شهت الطعام، وليتـذكر الإنسـان لذة قهر الهوى، مع تأمل فوائد الصبر عنــه، فمن وفق لـــذلك، كـــانت ســـلامته قريبة منه...».

أيها المذنب! فلتعظ نفسك.. ولتخوِّفها عقاب الله تعالى.. وشـديد يطشــه.. وجاهد عن شــهواتها.. وإيــاك ومطاوعتهــا.. وسل الله تعــالى هدايته إلى صــراطه القــويم.. والعــــــون والتأييد على هـــــــوى النفس والشيطان..

والحمد لله تعــالى.. والصــلاة والســلام على النبي وآله والأصحاب..